

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" للتغيير

الاجتماعي في المجتمعات العربية

Technologies modernes de l'information et de la communication et les obstacles de "vide culturel" au changement social dans les sociétés arabes

سليم بن العلمي *

جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2، الجزائر -

benleulmi.selim@univ-alger2.dz

عبد العزيز راس مال

جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2-الجزائر

rasmalabdelaziz@yahoo.fr

تاريخ الاستلام 2023/03/02 تاريخ القبول 2023/11/09

الملخص

لا يمكننا الحديث عن التغيير الاجتماعي، في أي مجتمع ما بمعزل عن عامل تكنولوجيا الإعلام والاتصال، بين كونها موردا أساسيا في الدفع بالتغيير الاجتماعي نحو الفاعلية والانجاز، أو أن تكون أيضا عاملا قد يحول دون تلك الفاعلية، ومثلما يتضمن مفهوم التغيير الاجتماعي إمكانية التقدم أو التأخر، يمكننا أن نميز بين الاثنین في جميع الحقول والمجالات من خلال ممارساتنا، بتحکیم معايير الفاعلية والقدرة على إحداث التغييرات النوعية، وبما يخدم التطور وإمكانية مواكبة التقدم الحضاري .

ومن دون شك أن الثقافة في عمومها هي من يحدّد توجه التغيير الاجتماعي الحاصل، أين تكون العوامل الثقافية هي المحرك لأي تغيير فعّال، مثلما قد تكون هي أكبر عوائقه. وفي حضور العامل التكنولوجي، قد نواجه إشكالية التغيير الاجتماعي وتكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ، لتتساءل عن المعوقات الثقافية التي تحول دون تغيير اجتماعي نوعي وفعّال.

الكلمات المفتاحية: الفراغ الثقافي، المعوقات الثقافية، التغيير الاجتماعي ، مجتمع المعرفة، تكنولوجيا الإعلام.

Résumé:

Nous ne pouvons pas parler de changement social dans une société indépendamment du facteur des technologies de l'information et de la communication, entre être une

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
ressource de base pour pousser le changement social vers l'efficacité et la réalisation, ou être aussi un facteur qui peut empêcher cette efficacité, et tout comme le concept de changement social inclut la possibilité de progrès ou de retard , nous pouvons les distinguer dans tous les champs et les domaines à travers nos pratiques, en arbitrant les critères d'efficacité, et la capacité de faire des changements qualitatifs, d'une manière qui sert le développement, et la possibilité de suivre le rythme du progrès civilisé. Sans aucun doute, la culture en général détermine la direction du changement social en cours, où les facteurs culturels sont les moteurs de tout changement efficace, tout comme ils peuvent être ses plus grands obstacles. En présence du facteur technologique, nous pouvons être confrontés au problème du changement social et des technologies modernes de l'information et de la communication, pour nous interroger sur les obstacles culturels qui empêchent un changement social qualitatif et efficace.

Mots clés: Vide cultureL, Obstacles culturel, Changement social, Société de la connaissance, Technologies de l'information.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

بالرغم من الانتشار الهائل لتكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة في بلداننا العربية والإسلامية، وبالرغم من إطلاع شعوبنا العربية على التطورات الحاصلة في جميع التخصصات و الميادين في الدول الغربية، وإطلاعها المباشر والغير مباشر على ما استطاعت هذه التكنولوجيات الحديثة أن تضيفه للبشرية في مجالات الاتصال وتبادل المعارف والعلوم وبما سمحت به من فرص للدول والحكومات وللشعوب الأخرى من إمكانية في اللحاق بالركب الحضاري العالمي، غير أن الهوية الثقافية والسوسيو-سياسية بيننا وبين الغرب ظلت كبيرة جدا قد تحول دون إمكانية اللحاق بهذه الحضارة الغربية، ناهيك عن مسايرتها ومواكبتها، ومنه يمكننا أن ندعم الرأي الذي يرى أن العالم قد قُسم إلى مجتمعات متطورة و أخرى متخلفة معلوماتيا.

وبالتالي فإن التغيير الاجتماعي الفعّال الرامي إلى التقدم و المواكبة الحضارية يظل غائبا، ولا يمكن تحقيقه في وجود بنى ثقافية عربية نجدها ترفض التغيير الفعّال الذي يستلزم العلم والعمل والالتزام، وقد لا تسعى هذه المجتمعات بجد نحو توفير الآليات القانونية والسياسية والتنظيمية لذلك. ويمكننا دحض الكثير من التوظيف النظري للمداخل النظرية، الاقتصادية والسياسية، أو تلك التي ارتبطت بالتكنولوجيا والمعرفة عموما، والتي يعتمد عليها الباحثون في تحليلهم للمعوقات التي تحول دون تغيير فعّال في مجتمعات لا تزال بعيدة عن الركب الحضاري، أين نجد أن هذه الدراسات تقتصر على

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
تلك العوامل وجعلها هي منطلق وأساس لكل تغيير اجتماعي، وقد نخالف هذا الطرح، لأننا نرى أنه لا
يمكن لأي مجتمع الخوض في المشروع التغييري العالمي القائم بكل تحدياته و فرصه وصراعاته، دون
تفعيله لمشروعه التغييري الخاص به، على مستوى دائرته الاجتماعية والثقافية والحضارية، فما
تحمله تلك المجتمعات من ثقافة ووعي وإرادة للتغيير، هو ما سيحملها إلى إحداث التغيرات النوعية
والفعّالة، وقد يصعب تحقيق ذلك بدون مقومات ثقافية تعمل في الطبع وتتمثل في الممارسات،
لتظهر في الفعل الاجتماعي وتشكل داخل البنية الاجتماعية ، لتصنع بعد ذلك نمطاً حياة متميز
ينعكس على الممارسات يعمل بمنطق تفكير فعّال، يُؤسس لواقع متفاعل مع كل جديد، وصانعا له
في الوقت نفسه، وهو ما سيجعل من عملية التغيير الاجتماعي صيرورة ثقافية وليست حدثاً طارئاً.

لا يزال العلم في كل يوم يحقق الإنجازات في شتى الميادين والحقول الاجتماعية والسياسية
والاقتصادية، وقد شكلت تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة بنية التقدم الحضاري الحاصل ، حتى
أصبحنا لا نميز بين ما هو حقيقي وما هو افتراضي في اندماج لبنى اجتماعية مع أخرى تكنولوجية،
تحاول أن تصنع الواقع بما تراه يخدم الإنسان ويحقق له أقصى فرص المتعة والراحة والأمان، وفي
هيمنة غير محدودة لثقافة التكنولوجيا، قد نتساءل عن مدى وعينا بالتحديات الموجودة في واقعنا
وعن مدى قدرتها على تشكيل البنى الاجتماعية في مجتمعاتنا، وهل علينا أن نتجاوز ثقافتنا ونتنازل
عن خصوصياتنا الثقافية من أجل الانخراط في ثقافة العصر كحتمية حضارية، أم علينا أن نحدث
التغيير اللازم الذي يمكّن لنا مواكبة الجديد الوافد والمساهمة في تحقيق النقلة الحضارية من خلال
ما نملكه من موارد وامكانات، من مثل تكنولوجيات الإعلام والإتصال؟

إن اختيارنا للاحتمال الأول وإختيار الانخراط في ثقافة العصر بغض النظر عن ما يمكن أن
يحدث من اغتراب، قد يستوجب تحقيق الاحتمال الثاني، وإحداث تغييرات جذرية داخل بنية مجتمعاتنا،
في ممارساتنا السياسية والتعليمية وغيره ، على المستوى الفكري الثقافي خاصة، غير أن الملاحظ
أننا بالرغم من أننا قد ننادي بالتغيير ونتفق حول وجوبه ، إلا أننا لا نمارسه بالطريقة التي تصنع
الفارق وتصنع التميز، بما يجعلنا نتساءل عن إشكالية ممارساتنا للتغيير الاجتماعي في زمن
التكنولوجيا، هذه الأخيرة التي لا نفتقدها كأشياء يمكننا إقتنائها، بقدر ما نحن في أمس الحاجة إليها
كبنية تكنولوجية تنصهر في بنيتنا الاجتماعية، وفي ممارساتنا الفكرية والتعليمية، يمكن أن نعمل
على تطويرها وتسخيرها في تفعيل التغيرات النوعية والفعّالة ، لا الاكتفاء بمجرد استهلاكها والتطلع
إلى الحصول عليها .

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" ————— ط.د. بن العلمي / د.راس المال

إن ممارساتنا للتغيير الاجتماعي الفعّال في وقت قد نمتلك فيه للتكنولوجيا في صورتها المادية، لا يمكن أن يحدث في انعدام وعينا بالغايات الحقيقية وراء ممارساتنا التي تشمل جميع مجالات الحياة، فعندما تكون ممارساتنا التي يمكنها أن تظهر في الكثير من الحقول والمجالات لا تؤدي الغايات الموضوعية ، بما يحقق التميز والفعالية، فإن استمرار انتاجها قد يكشف عن غايات أخرى ذاتية ومصلحية نسعى كأفراد و جماعات إلى تحقيقها، قد تزيد من عدم قدرتنا على إحداث التغيير المطلوب. الأمر الذي سيعيق كل فعالية يمكنها أن توفر لنا شروط وإمكانية اللحاق بالركب الحضاري، وبالتالي نكون أمام إنتاج "الفراغ الثقافي" الذي يحول دون أيّ تغيير نوعي داخل مجتمعاتنا ، بما يجعل أكبر معوقاتنا من أجل ذلك، هي معوقات ثقافية بامتياز، فكيف يعمل هذا الفراغ الثقافي، وكيف لهذه المعوقات الثقافية أن تحول دون التغيير الاجتماعي الفعّال؟

1 تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة في ثنائية التغيير الاجتماعي :

مهما كان التعريف الذي يمكننا أن نعرف به المفاهيم والمصطلحات التي تحوي ذلك المركب المفاهيمي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة، سنتفق لا محالة في كونها أدوات إستراتيجية لإحداث التغيير بشقيه الإيجابي أو السلبي، فعندما تندمج مع ثقافة المجتمع ستظهر في العلاقات الاجتماعية، وفي نمط الحياة، من خلال السلوكات والممارسات التي تفرضها هذه الأخيرة ، أين تعمل ممارساتنا في الوقت نفسه على تفعيل وفرض وجودها وتوسيع استعمالها، بما يجعل من التغيير الاجتماعي يحدث من خلال عملية انعكاسية بين كلا الطرفين، تُشكّل في الأخير حالة إجتماعية جديدة يمكن أن نميزها من خلال الثقافة، هذه الأخيرة التي تُحدث ازدهارا ثقافيا ينعكس على المجتمع ليشكل التقدم الحضاري.

إنّ ما يمكن أن تحمله تكنولوجيا الإعلام والاتصال من رسائل وخطابات واستراتيجيات عملية، تُوظف فيها المعلومات المختلفة المخاطبة للوعي، والتي تقوم بصناعته في الوقت ذاته، عبر عملية تشكيل لا تتوقف، بين مُرسِل ومتلقي وأداة للإتصال، مع تلك المادة المعلوماتية في أبعادها المختلفة، التي تعمل في الفكر وفي الممارسات، نجدها تظهر في واقع الناس وفي نمط حياتهم، تتجلى في نتائج هذه الممارسات فتُؤثر في البُنى الاجتماعية، لتُحدث التغيير، ويظهر ذلك التأثير المباشر والغير مباشر في ممارسات الأفراد والجماعات والحكومات، على مستوى جميع الحقول، أين يحدث التغيير بالقدر الذي يمكننا توظيفه من تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة، القدرة وبسهولة الوصول إلى العقول لما لهذه التكنولوجيات من آليات الاستحواذ على الوعي، وعلى توجيه الفكر .

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" ————— ط.د. بن العلمي / د.راس المال

لا يجب علينا تقزيم هذه التكنولوجيات في أحد منتجات هذه الصناعة الإبداعية، بل علينا التعامل معها كبنية للمعرفة، يَنجُر عنها في إطار تفاعلي مُوجَّه، إحداث التغيير المستمر والفعَّال، بما يمكنه أن يُنتج مجتمعات للمعرفة. وهذا ما يجعل التكنولوجيا، هي الأساس الذي تعتمد عليه إرادة التغيير الاجتماعي، مثلما ستكون أيضا في المقابل هي العامل الذي يمكنه أن يحول دون ذلك التغيير الفعَّال إذا تعاملنا معها كتقنية نسيء استعمالها، وليس كتكنولوجيا نعمل على إنتاجها والمساهمة في تطويرها، فعندما يغيب الفكر التغييري الذي تفرضه الثقافة في الممارسات الاجتماعية و في نمط التفكير السائد، تغيب بالتالي الإرادة التغيرية نحو الأفضل، وتكون بذلك هذه الوسائل أدوات تُعتمد من أجل تمرير خطابات محددة، أو لتحقيق مصالح ذاتية بُغية المحافظة على الوضع القائم، أو فرض واقعا جديدا قد يحمل شعارات تغييرية، تختفي وراءها مصالح ذاتية و فئوية، استهلاكية أو تسلطية، تستبد بالرأي وتحاول فرض الهيمنة، تعمل على تبرير كل ذلك باستعمالها تكنولوجيا الإعلام والاتصال أيضا، فتحول بذلك دون أي مشروع قد يرمي إلى إحداث تغيير ما، سواء على المستوى الفكري، الثقافي، السياسي، أو غيره، ليحدث بعد ذلك التضييل المبرمج ضمن استراتيجيات معقدة، تكون نتائجها حصول الفراغ والافاعلية، في القطاعات والحقول المختلفة التي ستنعكس على تشكيل البنية الاجتماعية مثلما تعمل هذه البنية على تشكيل المجتمع في الوقت نفسه، بما لا يخدم أي تغيير نوعي و فعَّال، ومنه قد نلمس الصراع الذي يمكن لهذه الوسائل أن تكشفه، بين ساع إلى إحداث التغيير الفعَّال وآخر يحول دونه.

إنَّه من خلال تلك الوسائل التي يفترض فيها أن تقوي من عمليات التواصل وترتقي بالفعل التواصلية نحو الفاعلية ونحو تغيير نوعي وفعَّال، والتي يفترض وجودها وبقوة وفاعلية في المجالات الحساسة كـ مجال الطب والصحة والتعليم والبحث العلمي، وفي الإدارة والخدمات بأشكالها المختلفة، لتتوسع أيضا نحو البحوث العسكرية وتكنولوجيا الفضاء وغيره، يمكننا الوقوف عن مدى التخلف في تحقيق التغيير الاجتماعي عندما نكون بعيدين عن توضيفها في كل ذلك، والوقوف كذلك على منحى توجه التغيير الحاصل، لنقف على أن امتلاك وتوظيف ومحاكات هذه التكنولوجيات يستدعي فكرا مسائرا لما وصل إليه العقل الانساني الذي استطاع أن يجعل من الثقافة البسيطة هذا الإبداع التكنولوجي، والتقدم الحضاري الذي نعيشه اليوم.

2- الفراغ الثقافي والتغيير في ظل تكنولوجيا الاتصال:

لا يمكننا أن نتوقع تكنولوجيات الإعلام والاتصال الحديثة على أنها مجرد وسائل اتصال ووسائط إعلامية وُجدت لتعين على إحداث التغيير الاجتماعي، فليست هي مجرد برامج أو مجموعة

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" ————— ط.د. بن العلمي / د.راس المال
أفكار إبداعية، أو رزمة من التوصيات والإرشادات، بل علينا أن ننظر إليها كمنتج ثقافي تراكمي، ونتائج لخبرات حياة، ولنمط تفكير متحرر، عمل طيلة قرون من أجل الارتقاء بالفكر وتفعيل ثقافة الازدهار، وقد تميز بكونه تكنولوجيا من خلال التصنيفات العديدة التي حُضت بها العلوم المختلفة، وعليه لا يمكن فصل تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة عن الثقافة التي سبقت وجوده، وواكبت في الوقت نفسه تشكل هذه التكنولوجيا، وقد شملها تعريف "تايلور ايدوارد" لهذه الأخيرة في كونها "ذلك الكل المركب الذي يضم المعرفة، المعتقدات، الفن، الأخلاق، القانون، الأعراف والقدرات، أو العادات الأخرى المكتسبة من طرف الإنسان كفرد في المجتمع".¹

ومن بين العوائق الكثيرة التي تحول دون تغيير اجتماعي فعّال في مجتمعاتنا، والتي يمكننا تعدادها وتبسيط الدراسات خاصة السوسيولوجية نحوها، إلى جانب دراسات موازية في الاقتصاد وفي السياسة وفي القانون، قد نركز على تلك المعوقات الثقافية التي تحول دون الفكر النير ودون الوعي العملي والفعّال، أين تعمل الثقافة على تداول الأفكار، وتكريس القنوات التي تتبنى نمط تفكير و فعل ممارساتي مرتبط أساسا بما تملّيه تلك الثقافة في كل مقوماتها، من دين وفكر وسلوكات وعادات وقناعات ونمط تفكير ومنطق فعل وغيره، تنطوي كلها تحت مفهوم الثقافة، تشتغل بما هو شفوي يكرسه التراث في عمومها، إلى جانب ما قد ينحصر بين دفات الكتب و يتناقله المخيال الاجتماعي، كأدوات ووسائل تملّيه الثقافة، قبل أن تحل الوسائل الاتصالية و الإعلامية التي هي في تطور مستمر وسريع في ظل التكنولوجيا، كبنية علمية تتعامل مع جميع الأنساق الاعلامية والاتصالية، وهي تشكل تلك التحولات الحضارية التي تعمل داخل أنساق العلاقات الاجتماعية من خلال الممارسات، لتنتج ما نسميه التقدم الحضاري، وتحدث بذلك، التغيير الاجتماعي الذي يعمل على تسريع الوثبات الحضارية، بعد أن كانت خطوات بطيئة وجهود متفرقة في غياب التكنولوجيات ومخرجات الاختراعات والاكتشافات، فعندما تصب تلك الممارسات العلمية والفكرية في ما يخدم التقدم وإحداث التغيير الاجتماعي، سينعكس ذلك على جميع الحقول والمجالات، ويعمل على تفعيلها بما يحقق الازدهار الثقافي، فتحدث حينها النقلة الحضارية، ويكون التغيير الاجتماعي هو ثمرة تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة، مثلما ستكون هذه الأخيرة هي نتيجة ذلك التغيير الحاصل في الوقت نفسه.

فعندما لا تفعل تلك التكنولوجيات الفعل الممارساتي، بحيث لا تعمل نتائج ممارساتنا على إحداث التغيير الفعّال، نكون بذلك أمام إنتاج للفراغ الثقافي، فاستغللنا لتكنولوجيا الإعلام والاتصال دون القدرة على إحداث التغيير الاجتماعي الذي يتماشى مع ذلك المسار الحضاري الحاصل اجتماعيا وثقافيا في الفكر والسياسة والاقتصاد، نكون بتلك الممارسات ننتج الفراغ الثقافي المخالف تماما

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
للازدهار الثقافي المشكّل للتقدم الحضاري. فماذا نعني بالفراغ الثقافي ؟ وكيف يعمل كآلية تحول
دون التغيير الاجتماعي الفعّال ؟

3- في معنى الفراغ الثقافي:

نعني بالفراغ الثقافي تلك النتائج غير الفعّالة من ممارساتنا بمجال أو حقل معين، حيث تعتمد هذه الممارسات على نمط تفكير يعمل بمنطق فعل غير فعّال، يحتكم إلى أفكار، إيديولوجيات، وقناعات داخل البنية الاجتماعية تشتغل داخل الحقل، أين تعمل تلك الأفكار والقناعات كمنطلقات محسوبة على الثقافة، توجه هذه الممارسات نحو تحقيق غايات ذاتية و مصلحة على حساب الغايات الموضوعية.

إذا الفراغ الثقافي هو مخرجات ممارساتنا في أي حقل من الحقول، حيث لا تؤدي هذه المخرجات إلى تحقيق بفاعلية الغايات المصرح بها، أو المفروض تحقيقها، بل تحقيق في المقابل غايات مصلحة أخرى، غير معلنة من تلك الممارسات، بما يُنتج الفراغ الثقافي في تلك الحقول.

و باختصار الفراغ الثقافي ،هو النتائج غير الفعّالة الناتجة من ممارساتنا، أو هي نتائج ممارساتنا عندما تعمل بمنطق فعل غير فعّال، ويرتبط هذا الفراغ بالثقافة، ويأخذ صفة الثقافي، كون منطلقات هذه الممارسات تكون فكرية أو ايدولوجية تتحكم فيها القناعات والرؤى المختلفة التي تندرج ضمن الثقافة، أين يكون منطق الفعل ضمن ذلك المركب الثقافي وضمن الفضاء الذهني العام الذي تسبح فيه أفكارنا واستعداداتنا.

ويمكننا تعريفه بما يخالفه بأنه، نتائج ممارساتنا في أي حقل من الحقول البديلة عن نتائج الفاعلية و الإنتاج التي يمكنها إحداث التغيير الفعّال داخل حقل الممارسة، بما يعكس الازدهار الثقافي العام، وسنقف على وجود الفراغ الثقافي ليس في التغيير الاجتماعي من خلال الفعل والممارسات داخل البنية الاجتماعية فحسب، بل نجده أيضا في بنية تكنولوجيا، أين تظهر تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة كأداة توظيف واستثمار، مثلما قد تكون غاية حضارية في حد ذاتها من خلال التصنيع والتطوير التكنولوجي، وبالتالي قبل أن نطرح سؤال المشاركة في تصنيع وابتكار التكنولوجيا، يمكننا أولا محاولة الإجابة على سؤال مبدئي حول مدى توظيفنا لها بفاعلية واستثمارنا إياها حين امتلاكها ،ومنه نسأل:

هل توظيفنا واستثمارنا لتكنولوجيا الإعلام والاتصال يكون من أجل تحقيق غايات حضارية مرتبطة بالفاعلية والتنمية وإحداث التغيير النوعي والفعّال ،أم أننا نستعملها لغير ذلك ؟

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
ومحاولة الإجابة كذلك على سؤال ثان فيما إذا كان تصنيع التكنولوجيا والمشاركة في تطويرها
يتضمن غاياتنا الحضارية التي نسعى نحوها، أم أننا نكتفي باكتسابها وتكديسها؟

وعندما وقفنا على ما أطلقنا عليه بالفراغ الثقافي في تحديدنا للغايات التي نرمي إليها من
توظيفنا لتكنولوجيات الإعلام والاتصال في أي حقل من الحقول، في مؤسساتنا، أو في تعاملاتنا
الشخصية وعلاقاتنا الاجتماعية كشف لنا ذلك عن **توجهين**.

3-1- التوجه الأول حضاري:

وهو توجه يكون مرتبطا بالتنمية وبإحداث التغيير الفعّال، الرامي إلى تطوير القدرات وتوسيع
المعارف وتفعيل الموارد البشرية على المستوى الفردي والجماعي، وأيضا على مستوى المؤسسات
والهيئات والحكومات، أين تعمل تلك التكنولوجيات على تفعيل البرامج الاقتصادية والاجتماعية
والسياسية والسوسيو ثقافية بما يخدم المسيرة الحضارية، والتمكين في المساهمة على تسيير
وإدارة تداعيات المنافسة العالمية في ظل العولمة، وتبرز حينها هذه النتائج في مخرجات ممارساتنا
في مختلف الحقول التعليمية والاقتصادية، السياسية والثقافية وغيرها، ويكون التعامل الوفير
والمركّز على العامل التقني والتكنولوجي بارزا في إحداث الفارق وتسريع التغيير داخل المجتمع،
وعليه يتحقق الاستثمار الأمثل لتكنولوجيات الإعلام والاتصال، بما قد يشجع على تطويرها
والمساهمة في إنتاجها، واعتمادها كبنية تكنولوجية تشكل البنية الاجتماعية، مثلما تعمل هذه
الأخيرة على تشكيل الأولى في الوقت نفسه، بما يضمن تحقيق التغيير الاجتماعي الفعّال.

3-2- التوجه الثاني ذاتي استهلاكي:

فبالرغم من توفر التقنيات التكنولوجية، غير أن عملية التغيير الفعّال داخل المجتمع لا تظهر
في الكثير من الحقول، وبالتالي سينعكس ذلك على الفرد والمجتمع في الممارسات، أين نجدها لا
تؤدي الغايات الموضوعية التي وجدت من أجلها، بقدر ما قد تركز على غايات أخرى ذاتية مرتبطة
بتحقيق المصالح، واستغلال النفوذ، والتسارع نحو التموّج على حساب الفاعلية، بما يحول دون التمكن
من تحقيق التغيير في ذلك الحقل بتطويره و تنميته. فقد تعمل الكثير من المجتمعات خاصة العربية
منها والإسلامية على التكديس،- مفهوم وضفه المفكر مالك بن نبي في هذا الإطار- من خلال
الاستيراد لوسائل تقنية، وهو ما عبّر عنه "عبد العالي دبله" "بأن نقل التكنولوجيا أو استيرادها لم
تحل مشكلة التخلف في مجتمعات العالم الثالث بعد أن راهنت عليها لعقود طويلة لأن الانطلاقة كانت

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال خطأ ،فالتكنولوجيا لا تستورد بل تخلق، وكل الذي يشاع حول هذا الموضوع هو في الحقيقة نقل للتقنية وليس التكنولوجيا، وهذا ما يجب أن يعيه الجميع ² .

وعليه نريد في تحليلنا لموضوعنا التكنولوجيا والتغيير الاجتماعي أن نتعامل مع التكنولوجيا كبنية عملية وحضارية، تظهر في ذلك الدمج بين الجانب المادي بما هو اختراع واكتشافات، مع الثقافة، كقيم وأفكار ونمط حياة ، لتتشكل عمليا من خلال ما تمليه ثقافة المجتمع التي تدفع دوماً إلى تحقيق التغيير الاجتماعي. ومن دون ذلك، قد تتعمق المشكلة الحضارية في أي مجتمع، وتدخل حينها تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ضمن ما أطلق عليه "مالك بن نبي" في مقاربتة لمشكلة الحضارة في عالم الأشياء، أين يصنف المجتمع المتخلف أنه يسعى نحو ذلك عندما يحسم الصراع الحاصل لصالح عالم الأشياء، على حساب فاعلية الأفكار، وقد ذهب إلى توضيح أن علاج المشكلة الحضارية لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يتم من خلال التكريس لتلك الأشياء. ويبين "مالك بن نبي" في تحليله لتلك الظاهرة المرضية "التكريس" التي يلجأ إليها المجتمع المتخلف كعلاج سطحي لمشكلة حضارة معقدة".³

قد نتعامل مع التقنية أو التكنولوجيا بوعي أو بدون وعي على أنها من الأشياء التي نسعى لاقتنائها، بالرغم من أننا لم نهئ لها في مجتمعاتنا البيئة الثقافية والتعليمية المناسبة التي تمهد لإقامة ما يسمى مجتمع المعرفة، والذي يقوم بالدرجة الأولى على إنتاج ونشر المعرفة وتوظيفها بكفاءة في جميع الحقول والمجالات والأنشطة، ومنه يبرز ما أسميناه بالفراغ الثقافي، فثقافة تكريس التكنولوجيا في مفهومها العام هو جعلها غاية نريد امتلاكها، كي نستهلكها على حساب تفعيلها عمليا واستثمارها في ممارساتنا مع مختلف الحقول والمجالات، وعليه نعيق عملية التحضر، لننتج ذلك الفراغ الثقافي. فلما تكون مخرجات ممارساتنا لا تتجه نحو تحقيق ذلك الإنتاج المعرفي، بعدم توظيف المعرفة فيما يفعل الغايات الموضوعية المرتبطة بالتقدم وتحقيق التنمية وإحداث التغييرات النوعية والفعالة، واقتصار مخرجات ممارساتنا على تحقيق غايات أخرى تغلب عليها المصالح الذاتية والفئوية الاستهلاكية بما يحول دون تغيير اجتماعي فعال، ستتصدر الثقافة بذلك العوامل والمعوقات الأساسية التي تحول دون أي تقدم أو تنمية حقيقية وفعالة.

"إن الأفكار والأيدولوجيات والمعتقدات الدينية والأخلاقية والتنظيمات الاجتماعية تجد صعوبة بالغة في إحداث التغييرات المصاحبة." ⁴ فالتغييرات الموضوعية تستلزم بالضرورة مواكبة حضارية حاصلة، قد تمنعنا من بلوغها تلك الثقافة التي نتبناها ونحاول تكريسها.

4-مجتمع المعرفة والتغيير الاجتماعي :

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
هل يمكن تحقيق مجتمع المعرفة من خلال إحداث التغيير الاجتماعي بتمكين مجتمعاتنا من وسائل
التكنولوجيا؟ "يرى الباحثون لقضايا المعرفة ومجتمعات المعرفة أن مفهوم "مجتمع المعلومات
العالمي" الذي يعني التركيز على الجانب التكنولوجي الاتصالي، هو المقدمة التاريخية والحضارية
للوصول إلى مجتمع المعرفة، أي استغلال الموارد التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات" 5 .

من خلال هذا المنظور قد يبدو أنه علينا التركيز على استغلال التكنولوجيا لإحداث التغيير،
واستغلال المعرفة كمورد أساسي للتنمية، ومنه نستنتج مباشرة أن عملية التغيير الاجتماعي في مسار
الفاعلية و الابتعاد عن الإكالية و العطالة هي ما يمكّننا من الانخراط في مجتمع المعلومات، وكذا في
مجتمع المعرفة، أين يُعد هذا المفهوم أشمل وأوسع من المفهوم الأول، وسيكون على المجتمعات التي
تسعى إلى ذلك أن تحدّد غاياتها الحضارية التي تريد تحقيقها، بما يستوجب بروز ذلك في ممارساتها
وفي نمط تفكيرها، وبما يمكن للثقافة أن تفرضه من منطق فعل فعّال، يجعل من تلك الغايات
الحضارية ثقافة تسري في الفكر والممارسات. ومنه ستعمل ممارساتنا على إنتاج تلك الموارد،
باستغلال تكنولوجيا المعلومات، والانخراط ضمن مجتمع المعرفة، هذا الأخير الذي بدوره سيجعل من
عملية التغيير الاجتماعي الفعّال في أي مجتمع عملية ناجحة، مستمرة ودائمة .

وعندما لا نعمل على تحديد غاياتنا الحضارية والموضوعية من ممارساتنا، نكون بذلك بعيدين
عن جعل تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة أدواتنا ووسيلتنا لتحقيق ذلك المجتمع الذي تميزه ثقافة
الازدهار والفكر النيرّ والفعل الفعّال، ولتحقيق ذلك كان يستوجب إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب،
الذي يمكنه أن يتعامل مع هذه التكنولوجيا في مرحلة ما كبنية معرفية، حينما نتمكن من تجاوز
التعامل معها كأدوات نسعى إلى إقتنائها، بل الانتقال إلى استثمارها والمشاركة في إنتاجها. فعلى
الثقافة إذا أن تتبنى فكر التغيير والانفتاح، والتخلص من تبريرات كثيرة غير موضوعية ، ايديولوجية
كانت أو دينية أو غيرها، نجدها تزيد من الهوية الحضارية بيننا وبين الآخر، وتنتج بذلك الفراغ الثقافي
الذي يحول دون تمكننا من المساهمة في تحقيق متطلبات مجتمع المعرفة .

وفي تتبعنا للكثير من تقارير التنمية الإنسانية العربية، وتقارير التنمية البشرية واقتصاد
المعرفة، يمكننا أن نلاحظ أن سمات مجتمع المعرفة واقتصاد المعرفة تكاد لا تذكر في عالمنا العربي.
"وسنجد العالم العربي يحتل المراتب الأخيرة ، أو أنه لا يشارك أصلا أو يساهم في التطور العلمي
والتكنولوجي سواء في مجال المعلومات أم في مجال اقتصاد المعرفة" 6 . ويمكننا أن نستثني بعض
الحالات الخاصة لدول عربية تحاول في السنوات الأخيرة أن تتخلص من ثقافة الاعتماد على الريع
واستنزاف الثروات الطبيعية، بمحاولتها الاستثمار في المعرفة وفي البحث العلمي، ومحاولة الارتقاء

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
بجامعاتها إلى مصاف الجامعات العالمية، وخوضها التحدي العلمي والتكنولوجي والاستثمار فيه بما
يهيئ لها الطريق للانخراط في مجتمع المعرفة والمعلومات، ونجدها أصبحت تمارس إقتصاد المعرفة
المعتمد على التكنولوجيا المتطورة، ومن هذه الدول هناك من أعلنت اقتراب الاحتفال بتوقفها عن
تصدير آخر برميل من البترول في سنة (2022)، وتبنيها مشاريعا معرفية تسعى إلى نشر وتحقيق
بنية مجتمع تحكمه المعرفة، يعمل في الوقت نفسه على إنتاجها، بما يجعل تلك العلاقة الديالكتيكية
القوية كفيلة بتشكيل مجتمع أساسه المعرفة ولا مجال فيه للعشوائية و الفوضى وإنتاج الفراغ
الثقافي.

لقد أردنا أن نتعرض إلى موضوع مجتمع المعرفة في هذه العجالة، لأنه لا يمكننا أن نتحدث
عن تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة دون ربطها بمجتمع المعرفة، ولأن نشر المعرفة وإنتاجها
ومنه توظيفها بكفاءة في مجال التنمية الشاملة، في مختلف مجالات الحياة السياسية والسوسيو
ثقافية، هي من المؤشرات الحاسمة على وقوع التغيير الاجتماعي، وأنه من دون تفعيل حقيقي
واستغلال أمثل لهذه التكنولوجيات، سيضطرننا ذلك إلى إعادة النظر في ما نحققه من إنجازات قد
نُدرجها ضمن ما يسمى التقدم، وبالتالي يحصل عندنا ذلك الخلط بين تقدم اجتماعي من جهة
وتغيير اجتماعي من جهة أخرى، أي بين تقدم قد نصفه بالبائس، مرتبطا بتغيير اجتماعي يكون غير
فعّال.

وعليه، " قد لا يأخذ التقدم معناه التغييري النقدي، ولكن معناه الاقتصادي الإنتاجي البحث،
وأحيانا المظهري، وهو تقدم بائس، وحداثة مشوهة " 7 . فلا يمكن إدراج ما قد يبدو تقدما ضمن
التغيير الاجتماعي الفعّال، إلا بعد التأكد من الخلفية الثقافية من وراء تلك الأفعال، التي تعمل على
تحفيز ممارساتنا، فالمنطق الذي نفكر به، وغاياتنا التي نحددها من تلك الممارسات، كفيلة بأن تدفع
بذلك التغيير نحو المزيد من الفاعلية والإنتاج، مثلما قد تكون أكبر العوائق التي تحول دون ذلك.

إنه من الضروري على المجتمعات العربية أمام ما يعرفه العالم من التحولات والمنجزات
العلمية و التكنولوجية والرقمية، أن تكون لها مراجعات نقدية ومنهجية تدفع بها نحو مجتمع المعرفة،
بما يمكنها من تدارك الخلل الواقع في السياسة والاقتصاد، وفي الثقافة والمعرفة، ومحاولة تدارك
تأثير ذلك كله على الوعي الفردي والجماعي في مجتمعاتها .

قد يحتاج منا التفصيل في تشكل مجتمع المعرفة وعلاقتها بتكنولوجيا الإعلام والاتصال
الحديثة من خلال التغيير الاجتماعي، إلى تعميق التحليل والنقد السوسيولوجي، وتوسيع مجال البحوث
في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بمعاودة طرح سؤال المعوقات الثقافية من خلال طرح إمكانية

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
التحرر من هيمنة الفراغ الثقافي، للتمكين لمجتمع المعرفة في مجتمعاتنا العربية. والبحث في ما إذا كانت مبادرات الدول العربية الصاعدة على قلتها يمكنها أن تكون نموذجاً ناجحاً في ذلك؟ ولمحاولة الاقتراب من الإجابة على مثل هذا السؤال الذي قد يستدعي إدراجه في مقال خاص، يمكننا أن نمهد لذلك بأن نرصد واقع العلم والتعليم في مجتمعاتنا العربية، في عصر تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة.

5- العلم والتعليم وإنتاج الفراغ الثقافي :

قد تمس مشكلة الجهل صميم عملية التغيير بصفة عامة، والتغيير الاجتماعي خصوصاً، والتي تكشف عنها ممارساتنا التي ينتج عنها ذلك الفراغ الثقافي، فإذا كان واقع تعاملنا مع العلم والتعليم لا يخرج عن الإطار المحدد، المدرسي والجامعي الذي نجده يستهدف التكريس المعرفي، دون توظيف فعال لهذه المعرفة التي يمكنها أن تربط العلم بما يمكن أن ينتج من بنى معرفية تميزها تلك الصورة التكنولوجية في كل التخصصات والميادين العلمية، والتي تصنف ضمنها آخر ما توصلت إليه البشرية من آفاق علمية قد لا نجد لها في عالم المعرفة الغير متناهي أي حدود أو نهايات، وقد يقابله الكثير من المجتمعات التي لا تستطيع أن تربط العلم والتعليم بالحاجات الاجتماعية في أبسط أشكالها، وهو الإشكال الذي ظل المفكر الجزائري "مالك بن نبي" يحاول أن يطرحه في ثنائية العلم والثقافة، فقد نحصل على العلم، غير أننا قد نفتقد إلى الثقافة التي تجعل من العلم نتاج حضاري، وليس مجرد معلومات. "إن الثقافة ليست مجرد علم يتعلم الإنسان في المدارس ويطالعه في الكتب، فالفرق بين الطبيب الأوروبي والطبيب الإفريقي فرق في السلوك لا في المعرفة".⁸ وفي نفس السياق يتحدث مالك بن نبي عن "التماثل في السلوك" بين الطبيب الأوروبي والراعي الأوروبي، هذا التماثل يعود إلى الثقافة بالرغم من اختلافهم الكبير في درجة العلم، ومنه نستنتج أن الثقافة تجر المجتمع كله بكل أصنافه وطبقاته الاجتماعية و اختلافاته المعرفية، الدينية و السياسية والتعليمية إلى تمثل الحضارة، وإلى ممارسة السلوك الحضاري، أين تختفي في المجتمعات المتقدمة مظاهر التخلف الفكري والعطالة الفردية والجماعية التي لا يخلو منها أي مجتمع كان ، ليغطي ذلك النسيج الثقافي المهيمن والفعال على تلك الانحرافات والاستثناءات، والتي تبقى انفرادية وخاصة وغير معلنة لا تعيق مسار التقدم الحضاري، ولا يمكنها التأثير فيه .

فما هو الهدف من التعليم ؟ هذا السؤال الذي يجب أن تطرحه الشعوب العربية والدول والحكومات، وتطرحه الأسرة وتطرحه جميع أطراف المجتمع أفراداً وجماعات، هل نريد منه تنوير الجهد الإنساني والدفع به نحو الفعالية والتميز وتحقيق غايات وجود هذا الإنسان، أم أن الأمر مرتبط بما

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
يعمل على إنتاج الفراغ الثقافي، وذلك بالتركيز على تحصيل النقاط و العلامات الجيدة في الامتحانات، ونيل الشهادات، ومنه تحقيق الامتيازات الشخصية والذاتية، مثل تحصيل راتب جيد، و الظفر بالوظيفة، و غيره مما يُعدُّ تحصيل حاصل، وليست غايات في حد ذاتها نطلبها من عملية الممارسة التعليمية، أو من غيره من الممارسات التي تنتج ذاك الفراغ الثقافي على حساب الغايات الموضوعية الحضارية .

من خلال ما تقدم يزيد اقتناعنا أن أكبر معوقاتنا من أجل أي نقلة حضارية هي معوقات ثقافية، نعمل على تشكيلها مثلما نعمل على تشكيلنا في الوقت نفسه، تحول دون إمكانية صناعة الإنسان الفعّال، بما يستوجب على كل فرد أن يسعى من أجل تغيير معادلاته الشخصية الراكدة، وذلك بتفعيل منطق فعل فعّال يجعل من غاياته في سلوكاته وممارساته غايات حضارية، بما سيعمل في المستقبل على تغيير اعتباره التقليدية و الشخصية المصلحية، التي تحول دون تحقيق الازدهار الثقافي. "وهذا لا يتحقق إلا إذا كان هدف التعليم ليس فقط اكتساب العلم النظري المجرد والتكنولوجيا، بل قبل هذا وذاك، التركيز على التربية السلوكية التي تستهدف بعث قيم الفاعلية وتنمية الوعي بالمشكلات، والتخلص من العادات السلوكية الراكدة، والوعي بالأهداف العليا للمجتمع".

إن إحداث التغييرات العميقة في الحياة مرتبط بإدراك المجتمع لمبررات وجوده، هي قناعة فكرية دارت حولها أفكار ومشروع "مالك بن نبي"، وقد تلهمنا مثل تلك الأفكار الانتباه إلى أهمية التغيير، كشرط أساسي يضمن استمرارية الحياة، دون ذلك الركود وتلك العطالة، فإدراكنا لمبررات الوجود، هو إدراكنا لفاعلية ممارساتنا، وقدرتها على إحداث التغيير الفعّال، بالاستفادة مما هو متاح في مجالات العلم والتكنولوجيا، والسعي أثناء ذلك وبعده، لتقديم الإضافة التي قد يعجز عنها من سبق إلى ذلك، فالإدراك الواعي والفعّال يستوجب قوة دافعة، قد يفتقدها الآخر في مخاض ذلك السعي نحو حضارة لا يمكنها إلا أن تكون حضارة إنسانية لم يستطع البشر حتى الآن تحقيقها .

خاتمة:

لا يمكننا الحديث عن التغيير الاجتماعي في أي مجتمع ما بمعزل عن عامل تكنولوجيا الإعلام والاتصال، بين كونها موردا أساسيا في الدفع بالتغيير الاجتماعي نحو الفاعلية والانجاز، أو أن تكون أيضا عاملا قد يحول دون تلك الفاعلية، فقد نتجاوز الكثير من العوائق الثقافية التي تحول دون الفاعلية و الإنجاز في مجتمعاتنا العربية والإسلامية في زمن خطى فيه العالم خطوة عملاقة في مجال البحث العلمي والتطوير التكنولوجي، ولم يعد بالإمكان اللحاق بالركب الحضاري دون إعادة النظر في منظومتنا الثقافية خاصة، والسياسية، والتاريخية، وهي كلها قد تحمل معوقات الانخراط في

تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة ومعوقات "الفراغ الثقافي" _____ ط.د. بن العلمي / د.راس المال
عالم الإنجاز والفاعلية والتميز. وإننا من خلال هذه المقالة أردنا أن نسلط الضوء على ما نرى فيه أنه
الأساس الذي تقوم عليه جميع المعوقات الأخرى، والتي تحول دون مواكبة حضارية فعّالة، مقتنعين
بأن عدم وعينا بهيمنة "الفراغ الثقافي" على ممارساتنا، أو إنكار وجوده، قد يزيد من ابتعادنا عن إيجاد
الحلول لمشكلاتنا، وإن الخوض في تفاصيل معوقات تقدمنا بمنأى عن هذا الإدراك، قد يستنزف منا
الأوقات، ويستهلك الجهود البحثية، ويزيد من ابتعادنا عن الغايات الحقيقية التي علينا تحقيقها في
ممارساتنا، وهو ما سيزيد من الهوة الحضارية بيننا وبين الآخر، لتتوسع بالتالي الهوة التكنولوجية
كذلك .

إنه من دون الكشف عن ذلك الفراغ الثقافي في وعي الناس، والكشف عنه في ممارساتهم،
ستبقى الكثير من الظواهر التي قد تختفي وراء ثقافتنا تحول دون ذلك التغيير النوعي والفعل الذي
علينا إدراكه، فضرورة الكشف عن تلك البنى الخفية التي تحول دون وعي حقيقي لإشكالات الفكر،
وانحرافات الممارسة في مجتمعات لا تعمل بمنطق الفعل الفعّال، والتي قد توظف وسائل الإعلام
 والاتصال الحديثة بما يصب في ذلك الفراغ الثقافي، هي المهمة التي علينا التركيز عليها لتدارك
معوقات تقدمنا وأسباب تخلفنا عن الركب الحضاري .

وفي الأخير يمكننا أن نقول أننا نعيش انفصالا بين بنى اجتماعية، وأخرى تكنولوجية لا
يمكنها أن تشتغل في معزل عن الأولى، ويظهر ذلك في ممارساتنا وفي شبكة علاقاتنا، وإن محاولة
عزل تلك البنى عن بعضها، بوعي أو بدون وعي، سيعمل على تعميق تلك الهوة الحضارية التي تظل
العائق الكبير الذي قد يفصل بين مجتمعات متقدمة وأخرى تسعى نحو ذلك، مع تسجيل أنه بالرغم
مما تمكنت الدول المتقدمة تحقيقه لازلنا نعجز جميعا، إدراك تلك الحضارة الإنسانية التي لم تتشكل
بعد.

الهوامش:

- 1- Cuche, Denys, (1998). La notion de culture dans les sciences sociales, Alger, ed Casbah, p:16
- 2- عبد العالي ، دبلّة ، (2011)، مدخل إلى التحليل السوسيولوجي، الجزائر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ص:204
- 3- مالك ، بن نبي ، (2013)، شروط النهضة، ط1، سوريا، دار الفكر، ص:86
- 4- عبد الغاني ، عماد ، (2007)، سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ص:204
- 5- بوزيد بومدين ، (2009)، التراث ومجتمعات المعرفة، ط1، الجزائر، منشورات الإختلاف، ص:16.
- 6- عبد العالي ، دبلّة ، المرجع السابق، ص:201
- 7- بوزيد بومدين ، المرجع السابق، ص:16
- 8- عبد اللطيف ، عبادة ، (2014)، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، الجزائر، دار بن مرابط للنشر والنوزيع.
- 9- المرجع نفسه، ص:64